نظرية المعرفة الإسلامية

المعرفة مرتكز فكري وفلسفي حول العلم الحقيقي واليقيني المسلم به تسليماً مطلقاً، وأول محاولة مستقلة لبحث موضوع المعرفة هي تلك المحاولة التي قام بها جون لوك في كتابه (مقالة في العقل البشري) وظهر مصطلح المعرفة عام 1832 حيث أشار إليه راينهولد في كتابه (نظرية ملكة المعرفة الإنسانية الميتافيزيقيا) والمعرفة أعلى وظيفة للإنسان في الوجود، وهل الاعتقاد والإيمان والدين إلا معرفة وأقسامها المعرفة الحسية، والمعرفة الفعلية، والمعرفة اللدنية، والمعرفة النبوية عن طريق الوحي.

وعرفها الجرجاني[1] العلم والمعرفة والإدراك عند فلاسفة المسلمين معناها واحد إذ هي (حصول صورة الشيء في العقل).

وعرفها القاضي الباقلاني (معرفة المعلوم على ما هو عليه أو على ما هو به وربما قال هو المعرفة)[2].

والغزالي عرف المعرفة بأنها (العلم الذي لا يقبل الشك إذ كان المعلوم ذات الله تعالى وصفاته)[3] وهو انتعاش النفس بصورة العالم حتى تصير عالماً مثله.

وأعلى هذه الدرجات هي التي تسمى المعرفة الحقيقية الواصلة إلى اليقين وتمر المعرفة عند الغزالي في مراحل ودرجات:

1 ـ مرحلة الشك.

---

(1) التعريفات ص 135.

(2) المغني، القاضي عبد الجبار ح 2 ص 18.

(3) الغزالي، ميزان العمل ص 175.

2 ـ مرحلة الظن.

3 ـ مرحلة الاعتقاد.

4 ـ مرحلة اليقين أو المعرفة الحقيقية.

وقال الرازي[1] المعرفة بأنها الاعتقاد الجازم سواءً أكان اعتقاداً تقليدياً أو كان علماً صادراً عن دليل، والمعرفة مسبوقة بجهل أو إدراك مسبوق بجهل والعلم كذلك، وكذلك يقال للحق سبحانه وتعالى: عالم ولا يقال له عارف وأبو حيان التوحيدي[2] يقول (إن المعرفة أخص بالمحسوسات والمعاني الجزئية في حين أن العلم أخص بالمقبولات والمعاني الكلية).

والشعور عند علماء النفس (إدراك المرء لذاته أو لأحواله وأفعاله، إدراكاً مباشراً وهو أساس كل معرفة[3] والشعور أنواع: التلقائي والتأملي والشعور الجمعي وقد وردت كلمة الشعور بمعنى العلم بالقرآن في ثلاثة وعشرين موضعاً قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴾ البقرة 154.

وقال أيضاً: ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ البقرة 12.

والدراية هي المعرفة الحاصلة بضرب من الحيل فهي تقديم المقدمات واستعمال الروية، والروية هي ما كان من المعرفة بعد فكر كثير[4].

والمعرفة أطلقت في ألفاظ كثيرة منها (البديهية وهي المعرفة الحاصلة ابتداءً في النفس لا بسبب الفكر) والكياسة وهي ما يدل على تمكن النفس

---

(1) مفاتيح ص 167.

(2) المقابسات رقم 7 ص 272.

(3) المعجم الفلسفي د. جميل صليبا ج 1 ص 703.

(4) الرازي، مفاتيح الطيب ج 1 ص 283.

واستنباط ما هو أنفع. والخبرة: وهي معرفة يتوصل إليها بطريق التجربة وكذلك الرأي والفراسة. والمراد بنظرية المعرفة (هي دراسة منهجية منظمة لقضية العلم أو مسألة المعرفة بدراسة ماهية المعرفة وإمكانها وطبيعتها وطرق الوصول إليها ومهمتها وحدودها) وفي المصطلح اليوناني (الإبستمولوجيا E-epistemology) وبحث ديكارت في نظرية فطرية المعرفة.

وأبحاث المعرفة الرئيسة هي (إمكان المعرفة ـ مصادر المعرفة ـ طبيعة المعرفة ـ قيمة المعرفة وحدودها).

فنظرية المعرفة بحث يتضمن البحث عن الحقيقة أي عن الوسائل المختلفة التي يتخذها الإنسان ليصل إلى الحقيقة، وتحديد مصادرها وطبيعتها وتحديد طابعها المثالي أو الواقعي أو المادي.

القرآن ونظرية المعرفة:

القرآن منهج رباني متكامل، شامل وهو نسيج وحده، ولا يفيه حقه وصفه بالنظرية، بل نريد أن نصل إلى صياغة نظرية المعرفة في القرآن.

طرق المعرفة في القرآن الكريم قال الله تعالى: ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ السجدة 9 قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ النحل 78.

ومصدر المعرفة القرآنية هو الله سبحانه وتعالى ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ العلق 1 ـ 5.

إذن ذكر القرآن طرق المعرفة ووسائلها من حواس وعقل أو قلب وأضاف طريقاً فريداً خاص به وهو طريق الوحي والإلهام.

دعوة القرآن للتأمل والتفكير وتوجيه النظر إلى الكون وإلى السموات العلا وإلى النفس ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴾الأعراف 185.

ويقرر القرآن نسبة المعرفة عند الإنسان، قال تعالى: ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ يوسف 76.

وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ الإسراء 85.

ويجعل القرآن الحق معيار المعرفة وليس الظن والشك قال الله تعالى: ﴿ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴾النجم 28.

وظهرت عبر تاريخ الفكر العالمي وخاصة في الفكر اليوناني فرقة سمت نفسها فرقة اللاأدريين وهي فرقة من فرق الشك في الوصول إلى المعرفة اليقينية وهي تقول بالتوقف في الحكم الصادر من الحس والعقل للوصول إلى المعرفة، وفرقة العنادية وهم يعاندون ويدعون أنهم جازمون بأن لا موجود أصلاً.

وفرقة الغيرية:

وهم القائلون بأن حقائق الأشياء تابعة للاعتقادات وأن الإنسان مقياس الأشياء جميعاً فالحقيقة عندك هي ما تتراءى لك والحقيقة عندي هي ما تتراءى لي فلا يوجد مقياس كلي للحقيقة.

فهم يطعنون بالحس والبديهيات العقلية كما أن العلية ممنوعة والشك أنواع:

شك المقلدة:

وهم يشكون بكل البراهين العقلية المتولدة من الحواس ولا يملك المعرفة اليقينية إلا الإمام المعصوم.

والشك الإيماني:

وغرضه ليس الشك وإنما الإيمان ويقول القديس إنزيلم: أنا لا أعرف لا أعتقد بل أعتقد أعرف لأنني لو لم أعتقد لما أمكنني أن أعرف فقال كانت إنه قضى في قوله على المعرفة لكي يفسح المجال للاعتقاد فمثل هذا الشك دوافعه إيمانية هي بالمفهوم المسيحي أن يعرف المخلص في الكنيسة كما أن أفلاطون قدم مجموعة من الأدلة تبطل كون المحسوسات مصدراً وحيداً للمعرفة.

الشك المنهجي المعرفي عند الغزالي:

جاول عن طريق الفلسفة الوصول إلى الحقيقة المطلقة ودرس الفلسفة وألف كتاباً (مقاصد الفلاسفة) ثم ثار عليها وألف كتاباً سماه (تهافت الفلاسفة) ومن ثم توصل إلى التصوف وتوصل إلى الحقيقة بعد مسيرة من الشك والتمحيص المنهجي حتى وصل إلى العلم اليقيني وهو (العلم الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافاً لا يبقى معه ريب ولا يقارنه إمكان الغلط إلى المعرفة، ولا يتسع الوهم لتقدير ذلك).

ثم توصل إلى المعرفة عن طريق نور قذفه الله تعالى في الصدر فقيل عنه (الشك المطلق عند الغزالي قد أفضى إلى حال من الإشراق الصوفي)[1].

ديكارت والشك المنهجي:

شك ديكارت في جميع الأشياء التي تأتيه عن طريق الحواس وبواسطتها ولكنه مع شكه هذا فهو لا يشك بأنه مفكر لأن الشك فكر.

---

(1) د. عثمان أمين، ديكارت ط 6 الأنجلو ص 29.

انطلق ديكارت واستدل على المعرفة بالوجود، واليقين الفلسفي عنده أن ينطلق من الذات العارفة إلى الذات الموجودة أو من الذاتية إلى الموضوعية ومن الفكر إلى الوجود (أنا أفكر فأنا موجود).

ورتب الأفكار الإنسانية إلى ثلاث طوائف:

الأولى أفكار غريزية أو فطرية وهي الأفكار الطبيعية في الإنسان التي تبدو في غاية الوضوح والجلاء كفكرة الله والحركة والامتداد والنفس.

الثانية أفكار غامضة تحدث في الفكر بمناسبة حركات واردة على الحواس من الخارج وليست لها أصالة في الفكر الإنساني.

الثالثة أفكار مختلطة وهي الأفكار التي يصطنعها الإنسان ويركبها في أفكاره الأخرى كصورة إنسان له رأسان.

وأخذ ديكارت من الطائفة الأولى فكرة الله وقرر أنها حقيقة موضوعية تفوق الإنسان وينطلق من إثبات نفسه أو وجوده عن طريق فكره إلى الله مباشرة وبغير واسطة.

وإن طلب المعرفة مركوز في فطرة الإنسان، منذ أن خلقه الله عز وجل، وبدليل وجود وسائل أو كفايات المعرفة في نفسه وفي النظر العقلي والإدراك الحسي والتقدير الوجداني للجمال والجلال والحق والخير.

وجعل الأبيقوريون الإحساس هو المصدر الأول لكل معرفة والمعيار الأول لكل حقيقة ممكنة ﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولاً ﴾ الإسراء 36.

الماركسية تعتمد على مبدأ (إنه يمكن معرفة العالم ومعرفة قوانينه تماماً وإن معرفتنا لقوانين الطبيعة التي يبرهن على صحتها التجربة والتطبيق العلمي هي معرفة صحيحة لها معنى الحقيقة الموضوعية)[1].

(1) أصول الفلسفة الماركسية ص 296.

فعند الماركسيين تتولد المعرفة في الانطلاق من الواقع الخارجي إلى الذات العارفة أو أن الذهن أو الفكر هو انعكاس للواقع المادي. يقول لينين (إن جدلية الأشياء هي التي تولد جدلية الأفكار وليس العكس) وهي عكس الهيجلية التي تعكس الأفكار على الواقع المادي، والمذهب العقلي يؤكد على أن العقل الإنساني قادر بلا مساعدة خارجية على تحصيل الحقيقة الموضوعية وهو رد على فريق الشك.

وسقراط رد عليهم بأن أقام العلم والحكم بإمكانه مستنداً إلى التصور الكلي وبنى نظريته في إمكان المعرفة على أن النفس الإنسانية إن هي إلا صورة من العلم الإلهي.

وبذلك أعطى للعقل أعلى درجة من موضوعية الإدراكات الحسية وهذا يشمل التفكير اليوناني وتفكير العصور الوسطى بما فيها من شروح الإسلاميين والمسيحيين واليهود وإنما هي مثالية تقر بموضوعية الإدراكات العقلية وأنها معرفة شاملة للعالم الطبيعي وما وراء العالم الطبيعي، فالعقل له سلطان لا يقف شيء في وجهه.

وموقف القرآن من إمكانية المعرفة تبدو بتكريم الإنسان قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ الإسراء 70.

وكيف بدأ الوحي القرآني بـ (اقرأ) (والإنسان يرد إلى أرذل العمر كيلا يعلم من بعد علم شيئاً) وامتحان آدم واختباره في مسألة العلم إذ علمه الله تعالى الأسماء كلها، والتكليف علم ومسؤولية وهي الأمانة مع تسخير الله الكون للإنسان، ومنها المعرفة بكل وسائلها وأدواتها ولكنها محدودة فتحتاج

إلى الوحي للاستدلال على عالم الغيب كما أن القرآن جاء بأدلة عقلية لإثبات عالم الغيب وضرب أمثلة من الطبيعة وكيف يحييها الله بعد أن تصبح جامدة كالشجر والنبات.

وعلماء الكلام حاولوا الوصول إلى الحقيقة التي هي ثمرة التوفيق بين مصدر الفلسفة اليونانية من جهة والدين من جهة أخرى، وطريق العقل من جهة وطريق الوحي من جهة أخرى فخرجوا بحقيقة الدين عن طبيعته وعقدوا مشكلة الفلسفة بما لا يتناسب ومنهجها.

وحاول علماء الكلام الدفاع عن الشريعة بمقدمات فلسفية أخذوها عن الفلسفات اليونانية وغيرها وبهذا اعتمدوا على العقل أكثر من النقل بإقامة الحجج لدفع شبهة أهل البدع.

ومهمة القرآن صياغة المعرفة الإنسانية على اليقين وتبدأ بالقراءة والعلم وتبدأ المعرفة بمعرفة الله عز وجل ثم معرفة كتابه ثم معرفة رسله ثم المعرفة الشاملة بالنظر والاستدلال والتجربة والتعلم لكل مناحي المعرفة العلمية والنظرية والمنافع الدنيوية كالطب والرياضيات والفلك.

واعتمدت المعرفة الإسلامية القرآنية على قاعدة الإخلاص في حب الحقيقة والبحث عنها والتجرد عن الأهواء مع التعامل الواقعي مع كل القضايا الإنسانية وليس التعامل الخيالي باستعمال منطق العقل، وقوانين الفطرة السليمة معتمدة على مقدمات وشواهد علمية صحيحة للبرهان والحكم والوصول إلى اليقين وقد عرف الجرجاني الإتقان (العلم بحقيقة الشيء بعد النظر والاستدلال)[1] ودرجات اليقين: علم اليقين قال تعالى:

(1) التعريفات، الجرجاني ص 34.

﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴾ التكاثر 5 ـ 6. وعين اليقين ﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴾ التكاثر 7 ثم حق اليقين ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ۝٩٥ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ الواقعة 50 ـ 51.